

ما الذي تتمناه لأطفالك أكثر من أي شيء آخر؟

ليس هناك ثروة سوى الحياة

جون رسكن (1819 - 1900)،
ناقد فني ورسام بريطاني

من أجل التسلية والمتعة، استطلع آراء أولياء الأمور الذين تعرفهم، واطرح عليهم السؤال الذي عُنون به هذا الفصل: ما الذي تتمناه لأطفالك أكثر من أي شيء آخر؟ وفي انتظار نتائج الاستطلاع، اطرح السؤال ذاته على زوجك، ولاحظ ما ستكتشفه عندما تبدأ بقراءة هذا الكتاب، وبعد أن تتلقى الردود، صنّفها، وسوف تجد أنها تتمحور حول موضوع رئيس.

وقد وجدت من خبراتي بعد طرح هذا السؤال على أولياء الأمور، وإعطائهم الوقت الكافي للتفكير في أهمية هذا السؤال العميق، أن الإجابات لم تتعد القائمة الآتية:

أريد لأطفالي أن:

- يكونوا سعداء، وألا يعانون الفشل في الحياة.
- يعرفوا كيف يتمتعون بالحياة، وأن يقدروا قيمة كل يوم على أنه معجزة.
- يكونوا أفرادًا ناجحين ومهمين، بصرف النظر عما يقومون به.
- تكون لديهم مشاعر إيجابية تجاه أنفسهم والآخرين.
- يكبروا وهم يعرفون كيفية مواجهة المشكلات التي لا مفرّ منها، والانتصار عليها، ولا يجعلوها تهزمهم بأيّ صورة من الصور.

- يكونوا متحررين من الإحباط والتعاسة.
- لا يكونوا عصبيين.
- يكون لديهم إحساس قويّ بالسّلام الداخلي الذي يساعدهم على الصّمود في الأيام الصعبة.
- يقدّروا قيمة اللحظة التي يعيشونها، وأن يتمتعوا برحلة الحياة، وأن يتجنبوا التّشبّث بمحطة بعينها.
- يدركوا أنّهم هم الذين يرسمون حياتهم، وأنّ لديهم القوة ليختاروا حياتهم، ويغيّروها.
- يكونوا حساسين ومسؤولين تجاه الطبيعة والبشرية.
- يكتشفوا قدراتهم وإمكاناتهم، وأن يشعروا بالرضا والتّحدي تجاه هدف ما في الحياة.
- يكونوا محبّين ومحبوبين.
- يكتشفوا الفرص الكامنة في خبرات الحياة المؤلمة التي لا مفرّ منها.
- يكونوا على وئام مع الصحة: الجسديّة والعقليّة.

كانت هذه هي الإجابات التقليدية التي تلقيتها، وقد اختزلتها في جمل قليلة بسيطة، وقد ظهر لي أنّ أولياء الأمور ليسوا مهووسين بفكرة أن يصبح أطفالهم أغنياء ومشهورين، أو أن تكون حياتهم خالية من المشكلات، ولم يظهر أنّ أولياء الأمور مصممون على أن يحظى أطفالهم بوظائف شاعرية، وبيوت جميلة، وزواج مثالي، وحياة عائلية مثالية كذلك التي تصورها المسلسلات التلفزيونية وأفلام السينما، بل يبدو أنّ أولياء الأمور هؤلاء واقعيّون في تحديد أهدافهم لأطفالهم، وهم يعرفون أنّ الأشياء المادية ليس بالضرورة هي التي تجلب لأبنائهم السعادة، ولهذا فإنّهم لا يريدون أن يعلموا أطفالهم جمع الأشياء بحثاً عن السعادة.

لقد أدركنا جميعاً، في السّنوات الأخيرة، أنّ التّمكك، والمنصب، وتكديس الثروة، وبعض مقاييس الحياة الناجحة لم تعد مناسبة. وقد سمعنا روايات كثيرة عن أشخاص ناجحين أدمنوا تناول المهدئات، وهم يزورون الطّبيب النّفسي بانتظام، وأنّهم يعانون الاكتئاب، ويرون أنّ الانتحار هو الحلّ لمشكلات الحياة، أو أنّهم مشغولون دائماً في جمع المزيد، لدرجة لم يعد لديهم الوقت للاستمتاع بالحياة.

لقد أصبح الناس ينظرون بحذر إلى مرادفات النجاح غير المرغوب فيها، ويريدون لأطفالهم امتلاك السكينة والسعادة بدلاً من ذلك، وهي ما يجعلهم يصمدون حتى أمام أسوأ الأوقات العصبية، وأنا على ثقة أنكم تريدون أن ينشأ أطفالكم بوصفهم بالغبين، قانعين، ومعافين، وقادرين، على معالجة صعوبات الحياة جميعها، دون أن يسمحوا لها بالسيطرة عليهم، أو هزيمتهم بأي طريقة كانت، أو أن تترك فيهم جروحاً دائمة تجعلهم يلجؤون إلى تدابير خارجية مثل الحبوب المهدئة والعلاج النفسي، أو حتى العمليات الجراحية؛ ليتمكنوا من التكيف مع الحياة. وباختصار، فأنتم تريدون لأطفالكم أن يكبروا ليكونوا مستقلين في كل جانب من جوانب الحياة، وأن يتمتعوا بالحياة دون أن تتشكل لديهم مواقف غاضبة أو انسحابية، وتريدون لأطفالكم أن يكونوا إيجابيين لا متدثرين تجاه حياتهم، وتريدون منهم أيضاً أن يشعروا بأنهم ناجحون بدلاً من الاعتماد على عامل خارجي لتحديد درجة نجاحهم.

القدرة على التمتع بالحياة

للحظة، فكّر في الأفضلية الكبرى في الحياة، وتصور أنك وأطفالك قد مُنحت القدرة على الاستمتاع بها، على الرغم من الظروف المحيطة بكم؛ فإذا هجرك شخص ما أو قاطعك، فأنت لا تزال تعرف كيفية الاستمتاع بالحياة، وإذا ما أُصبت بمرض خطير، أو واجهتك مشكلة صعبة، فإنك لا تزال قادراً على الاستمتاع بها أيضاً، إن خيبات الأمل تحدث وتختفي، ولكنك تظل دائماً تعرف كيفية الاستمتاع بالحياة بسبب الهبة الداخلية لديك.

وإذا امتلكت هذه القدرة الخيالية فلن تكون عبئاً على الآخرين، وعندئذٍ لن تكون أنانياً، بل ستكون إنسانياً إلى أبعد الحدود، ولا جرم؛ فإذا كنت تستطيع الاستمتاع بالحياة دائماً، فلن تضع مجموعة من التوقعات للآخرين كي يوفروا المتعة لك، بصرف النظر عما يختارونه في أي وقت من الأوقات، ولهذا فإن القدرة على الاستمتاع بالحياة في الأوقات جميعها هي – بلا أدنى شك – هبة رائعة.

هذه القدرة موجودة لديك، وليس من الضروري وجودها في مخيلتك فقط، وبإمكانك أن تجعلها واقعاً لك، وأن تنقل هذه الميزة الرائعة إلى أطفالك أيضاً، وبعد مراجعة الأهداف التي تتمناها لأطفالك كلهم، ودراسة الأشياء الممكنة التي قد توفرها لهم جميعها، فإن هذه الأهداف تختزل دائماً في رغبة واحدة: أتمنى لأطفالي دائماً القدرة على الاستمتاع بالحياة. فإذا كانت هذه الجملة تصف ما تتمنى أن توفره لأطفالك، فبإمكانك أن تجعلها أولوية بدءاً من اليوم، وإذا ما قدمت

هذه الهبة الرائعة لأطفالك، ومنحتها لنفسك في الوقت ذاته، فإن مكافأتك ستكون أطفالاً يكبرون وينضجون ليصبحوا من أكثر البشر فاعلية في هذا الكوكب؛ ذلك أن الذين يحدثون فرقاً وتغييراً في هذا العالم ليسوا أولئك القلقين على سعادتهم الشخصية، بل الذين يفترضون ببساطة أن هذه السعادة متطلب سابق لإنسانيتهم، والأفراد الذين يشعرون بأنهم ناجحون، والذين يكون أدؤهم عند أعلى مستوى، هم القادرون على تجاهل الحاجة إلى وجود شخص يعطيهم حقنة السعادة. إن أصدق تعريف أعرفه للشخص اللامحدود هو أنه الشخص الذي يعرف كيفية الاستمتاع بالحياة، عندما يفقد الناس الذين من حوله عقولهم.

وعلى افتراض أن معظم أولياء الأمور يرغبون في غرس هذا النوع من الموقف العام للاستمتاع بالحياة عند أطفالهم، فأين يحدث الخلل بين ما نتمنى بصدق أن نوفره لأطفالنا، والحقيقة التي نواجهها كل يوم؟ ولماذا يوجد كثير من البالغين والمراهقين الذين يتناولون المهدئات ليومياً يومهم بسلام؟ (سنوياً، هناك نحو 100 مليون وصفة طبية تصدر في الولايات المتحدة وحدها لصرف مهدئات الفاليوم والليبريوم)، فلم نتناول الأقراص لنستطيع النوم، أو لننظلم مستيقظين، أو لنخفف من توترنا، أو لنستمد الطاقة، أو لننتخلص من الشقاء، أو لإبطائنا أو تسريعنا؟ ولماذا يعاني كثير من الناس التوتر الشديد؟ والإلم يعزى استمرار معدلات الانتحار في الارتفاع، وخاصة بين الشباب؟ ولم أصبحت زيارة الطبيب النفسي حدثاً يومياً متكرراً؟ وما سبب هذا الانتشار الواسع للمخدرات والكحول من أجل الحصول على النشوة؟ ولماذا يسود الغضب والعداونية في عالمنا؟ وما سبب لجوء الأفراد إلى أساليب يائسة لإسعاد أصواتهم؟ إذا كنا نريد أن يكون الأطفال قادرين على الاستمتاع بالحياة، فمن أين يأتي هؤلاء التعساء جميعهم؟ ولماذا أصبحت الكراهية طاغية أكثر من الحب؟ ولم يعيش الناس في رعب داخل بيوتهم التي يفترض أن يسودها الأمن؟ ولماذا يصبح كثير من الأطفال مدمني مخدرات، أو مجرمين، أو أتباع طوائف دينية منحرفة، أو في أفضل الحالات غير مهذبين تجاه الغرباء؟

في الواقع، معظمنا لا يعرف كيفية التصرف لمساعدة الأطفال على كيفية الاستمتاع بالحياة، وهذا يعود إلى أننا لم نتعلم هذا السرّ البسيط، ومن ثم فنحن ببساطة لا نستطيع تعليم الآخرين شيئاً لا نعرفه. إننا نستمر في الدوران داخل حلقة مفرغة سلّمت إلينا، وعلى هذا، يصبح أطفالنا ضحايا جهلنا الأبوي. وعلى الأغلب، فنحن نعتقد أننا نعرف أسرار تشكيل الإنسان الناجح، ونقضي وقتاً طويلاً في ترهيب أطفالنا كي يستسلموا لما نعتقد أنهم يجب أن يكونوا عليه، ونحن نراجع أخطأنا،

ونقسم على ألا تتكرر عند أطفالنا، ونفترض أننا أصبحنا نمتلك الحكمة لمجرد أننا عشنا عمراً أطول، وأن على الأفراد الأصغر سناً منا تقبُّل هذه الحكمة، وفي الحقيقة، إنَّ تعلُّم كيفية الاستمتاع بالحياة هو موقف في حدِّ ذاته. وخلاصة الأمر، علينا الاختيار بين أن نتعلم أو لا نتعلم، ولكننا عادة ما ننسى هذا، أو أننا أنفسنا لا نملك هذا الاعتقاد الداخلي، وبالنتيجة لن نتمكن من نقله إلى الأجيال الشابة. تقول الفرضية الرئيسية في هذا الكتاب، وفي كلِّ شيء كتبت في حياتي: يجب أن تكون القدوة، وأن تكون قادراً على نمذجة ما تحاول أن تعلمه للآخرين.

أن تكون له مثالاً و قدوة

تخيل أنك ذهبت يوماً إلى طبيب أسنان، فأخذ يلقي عليك محاضرة عن أهمية العناية بالفم، في حين كانت ابتسامته تكشف عن أسنان أمامية نخرها السُّوس، أو تخيل أنك تتحدث إلى طبيبك الذي أخذ يسرد أمامك مضار التدخين، وهو ينفث دخان سيجارته في وجهك، لا شك أن ردة فعلك الأولية ستكون حادة، وستقول لنفسك: هذا الشخص مزيف. وينسحب المنطق ذاته على تعليم المواقف الحياتية؛ فإذا كان هدفك مساعدة الأطفال على اكتساب تقدير للحياة، وتطوير القدرة على الاستمتاع الدائم بها، فعليك أولاً أن تبدأ بنفسك، ونمذجة هذا النوع من المواقف في تفاعلاتك وتصرفاتك جميعها.

وإذا كنت تكبِّت نفسك باستمرار، وتعيش حياتك يوماً بيوم دون تقدير لذاتك، فإنك في الحقيقة تظهر للأطفال أنك لا تقدّر ذاتك عالياً، ولهذا فإنك غير جدير بتعليم أيِّ طفل تقدير ذاته.

عليك أن تكون قدوة! إذا أردت منهم تغيير سلوكهم، فمن الضروري أن تقدّم لهم صورة لشخص يحترم ذاته، ومن المهم أن تكون حياتك متماسكة إذا كنت ستقدّم لهم مثالاً يُحتذى به.

لا يوجد ردّ على الموقف السلبي للطفل أفضل من النموذج الإيجابي، ويمكنك أن تبحث عن الإجابات للردّ على هذا في كتب الأطفال جميعاً التي نشرت حتى الآن جميعها، ولكن فيما يخص طفلاً تتقصه الدافعية، فليس هناك جواب أفضل من جواب شخص يتمتع بدافعية عالية. إنَّ أفضل من يردّ على طفل غاضب هو إنسان هادئ، وأفضل من يجيب عن طفل متعصّب هو شخص محبّ متسامح، وإن أفضل من يشجّع طفلاً خائراً الهمة شخص متحمّس. ومع أنه ليس من الضروري أن يكتسب أطفالك مزاياك جميعها، فإن أفضل ما تبدأ به مشروع تنشئة الأطفال ليعطوا أفضل ما لديهم، هو أن تفعل الشيء ذاته لنفسك، وأن تكون قدوتهم ما أمكنك ذلك.

حتى إن لم تكن ذلك الشخص الذي قهر مكان الخُطأ فيه، وتشعر أنه ما يزال لديك الكثير من العمل لتجزه، فبإمكانك أن تبدأ بتصويب التعليقات التي تصدر عنك أمام أطفالك؛ فمثلاً بإمكانك أن تحاول وقف أي عبارات تدمر تعكس عدم قدرتك على الاستمتاع بالحياة، مثل:

هذا أمر محبط؛ لن نتقدم أبداً.

يبدو أن الحظ لا يحالفنا بتاتاً.

كيف لي أن أكون سعيداً مع هذه المتاعب التي تسببها لي؟

من لا حظ له لا فائدة من تعبهِ وكده.

الحياة مأزق.

وعندما تعمل على إزالة العبارات التي تعكس عدم القدرة على الاستمتاع بالحياة، فإنك في الحقيقة تعطي مثلاً حياً لشخص واحد على الأقل يرفض الانهزام أمام الحياة، وهناك جُمل جديدة يمكن أن تتمرن عليها كل يوم، وخاصة عندما لا تسير الأمور على هواك، حتى إن كنت لا تؤمن بها بعد، ومن هذه الجمل:

ما حدث أمر بسيط؛ سحابة صيف عن قريب تنقشع.

ما بعد الضيق إلا الفرج.

كلُّ يقلع شوكة بيده.

الإنسان يصنع حظه بنفسه.

الحياة جميلة.

ويمكن أن نرى في كل واحدة من الجمل السابقة الفرق بين أحد الآباء الذي يعطي مثلاً متشائماً دائماً، وآخر ينظر إلى الجانب المشرق من المسألة ذاتها، فإذا كنت تريد لأطفالك أن يطوروا القدرة على الاستمتاع بالحياة في الأوقات جميعها، ولكنك ترى كثيراً من المواقف السلبية تهدد شخصياتهم، فعليك أن تبدأ المهمة بقلب هذه المواقف من خلال النظر إلى نفسك أولاً، ولن تستطيع إزالة السلوكيات والمواقف المدمرة للذات جميعها عند أطفالك بمجرد تغيير نفسك، ثم التوقف عند هذا الحد، ولكنك تستطيع إحداث ثغرة في ذلك الدرع السلبي، من خلال إعطاء الأطفال دائماً، مثلاً لشخص يرفض أن يكون أحد ضحايا الحياة.

وفي الوقت الذي تفكّر فيه بإعطاء نموذج حيّ لشخص يعرف كيفية الاستمتاع بالحياة، فذلك ليس من أجل أطفالك فحسب، بل لمصلحتك أيضاً، ذكّر نفسك بالأشياء المهمة حقيقة في الحياة، فنحن كثيراً ما نعطي قيمة كبيرة لقوانين التعلم، واكتساب المعرفة، والتحصيل، والمكافآت الخارجية، مثل فرصة وظيفة في سوق الأسهم، أو القدرة على جمع النقود، غالباً نصنّف هذه الأشياء ضمن معظم أهم القيم التي يمكن أن يمتلكها الإنسان، وكلّ ذلك على حساب المزايا الأكثر أهمية، وهي – ببساطة – قدرة الإنسان على أن يكون سعيداً.

ما تعرفه مقابل ما تشعر به

ما الشيء الأكثر أهمية في حياتك: ما تعرفه أم ما تشعر به؟ إنّ من المستحيل الفصل بين الاثنين تماماً، ولكن بصورة عامّة، ما الذي تفضّله: معرفتك أم مشاعرك؟

كلنا يعرف أننا نصبح أقلّ فاعلية ونشاطاً عندما نشعر بالحزن، ونواجه صعوبة في أداء واجباتنا بفاعلية إلى أن نتمكن إلى حدّ ما من تعديل الشّعور السيئ الذي نمرّ به. تعدُّ الأحاسيس، أو المشاعر، أهم جانب من جوانب حياتنا، ومع ذلك فإننا نهملها تماماً عندما نركّز على اكتساب المعرفة في كلّ من البيت والمدرسة، ولقد واجه المرثون هذه المعضلة على مدى قرون، وأصبح المنحنى الوجدانيّ (العواطف) مقابل المنحنى المعرفي (المعرفة) هو المصطلح الذي يُطلق على هذه المعضلة في الميدان التربوي. إنّ المدارس تنفق أكثر من 95% من ميزانياتها وطاقاتها على الجانب المعرفي، ويخصّص أولياء الأمور القدر ذاته من طاقاتهم وأوقاتهم في تطوير المجال المعرفي هذا، في حين ندرك تماماً في صميم قلوبنا أنّ مشاعرنا تحظى عملياً بالأولوية في جميع اللحظات المهمة في حياتنا.

إنّ تعلّم إدارة المشاعر، وامتلاك الثقة بالنفس، وتقدير الذات، وتجنب الكآبة والخوف والقلق والتوتّر، والشّعور بالذنب والغيرة والخجل، وما شابه ذلك، مهارات أساسية يمتلكها الأشخاص ذوو القدرات الواسعة، وإنّ مناطق المهارة هذه تكتسب أهمية خاصة في المجال الوجدانيّ لكي نعيش حياة سعيدة متكاملة؛ أي ذلك النوع من الحياة الذي يجعلك تقدر هذه الحياة، وتستمتع بها دائماً، ومع ذلك، فنحن نتجاهل المهارات الوجدانيّة، ونعدّها أموراً تافهة، أو أشياء نعرفها فعلاً. وفي الحقيقة، القليل منا من يستطيع إدارة عواطفه، وهناك عدد أقلّ قادرون على تعليم أطفالهم كيفية تجنّب شباك التعليم غير الفاعل في المجال الوجدانيّ.

إنَّ الأشخاص الذين يتعرضون لانهايار عصبي ليسوا بالضرورة غير متعلمين، بل على العكس من ذلك، فغالبًا ما يكونون قادرين على نظم قصائد معقدة، أو فكِّ أغاز القصائد الرّمزيّة، أما الأشخاص الذين يتناولون الأقراص المهدئة كي يتكيّفوا مع واقعهم، فقد كانوا بارعين سابقًا في حلّ المعادلات التّربيعيّة، وإنَّ الأشخاص الخجولين يحصلون على أعلى الدرجات في مهارتي القراءة والكتابة، في الوقت الذي برع فيه الأشخاص الفاقدون للحبِّ والثقة في مسابقة تهجئة الكلمات. وليس هذا فحسب، بل إنَّ الأشخاص الغاضبين والعدوانيين غالبًا ما يتقنون متطلبات ووظائفهم، وإنَّ باستطاعتهم تتبع الدوائر الكهربائيّة المعقدة في الأجهزة الإلكترونيّة، وعادة ما يستطيع الأفراد الخائفون القيام بعمليات الجمع والطرح، إضافة إلى عدم تغيّبهم عن المدرسة. وهكذا، بدأت الآن تتبيّن المهارات الحقيقية المهمة التي لا يلتفت إليها بدعوى اكتساب التعليم، وأنا أريد بشدة تعلّم المهارات المعرفية؛ لأنّ الفرد كلما زادت معرفته في المجالات جميعها، أصبحت حظوظه أفضل ليصبح إنسانًا بلا حدود طوال حياته.

في الواقع، الهدف الرّئيس للتنشئة هو تعليم الأطفال ليصبحوا فيما بعد آباء، فأنت تريد للأطفال الاعتماد على توجيهاتهم الداخليّة، وأن يكونوا مستقلّين في تفكيرهم، وتجنّب السّقطات العاطفيّة المدمّرة، وأن يعرفوا أنّ لديهم مهارات باستطاعتهم استغلالها، وأن يعيشوا حياة سعيدة، وكذلك التّوقّف عن استشارتك إلى الأبد.

صحيح أنّ عليك أن تكون مرشدهم مدة من الرّمن، ولكن بعد ذلك سوف تتمتع برؤيتهم وهم يستقلون بذواتهم، ولتحقيق ذلك؛ ربما يتطلب الأمر أن تتقّف نفسك في مواصفات الحياة التي لا تعرف الحدود، وأن تمد يد العون لهم؛ ليتخذوا خياراتهم بأنفسهم، وأن يكتسبوا أكبر قدر من المهارات المعرفية كما يحبّون، مع امتلاكهم الدائم لقدرات الإتقان في المجالات الوجدانية أيضًا.

وهناك أيضًا مواصفات عدة للمجال الوجدانيّ الذي تكتسب فيه مشاعر الإنسان أهمية كبيرة، وسوف تكتشف هذه الأهمية عندما تحظى أنت وأطفالك بمزايا هذه المواصفات، عندئذٍ لن تنسوها أبدًا. وفي الواقع، سوف ترافقكم أينما ذهبتم، وسوف توظّفونها في أيّ مهمة تقومون بها طوال حياتكم، سواء كان أحدكم ينظف خزائنه، أو يعمل في الحديقة، أو يرتق قطعة ملابس، أو يدفع مخالفة مرور، أو يمر بتجربة عاطفيّة؛ إنها أدوات توظّفها في المهمات والخبرات الحياتية جميعها، ولن يكون بمقدورك أن تتجاهلها بعد الآن.

المجال الوجداني

إن أحد الافتراضات الرئيسة لهذا الكتاب هو أنك تريد لأطفالك حياة سعيدة، خالية من الأمراض العصبية، فأنت تريد مساعدتهم على استبطان مواقف ومهارات محدّدة ستخدمهم طوال حياتهم، بطريقة يعرفون معها كيف يعيشون ببراعة وإتقان. منذ البداية، تدرك أنهم لن يتعلموا هذه المهارات والمواقف في غرفة الصّف؛ لأنّ المدارس لا تملك مناهج دراسية لتطوير طلاب بارعين بلا حدود، بل إنّ هذه المدارس تعمل غالباً في اتجاه مغاير لهذه الغايات، لذا على الأطفال البحث عن اكتساب أفكار لا تعرف الحدود في العالم الواقعيّ. وقد صاغ الشاعر والرّوائي الأمريكي ميلفيل (Herman Melville (1891 – 1819 مؤلف (موبي ديك) هذا الأمر على النحو الآتي: لقد كانت سفينة صيد الحيتان جامعتي بدلاً من جامعتي بيل وهارفارد، وهذا تعبير ذكيّ للقول: إن الإنسان يتعلم من الممارسة، وليس من الاستماع إلى المحاضرات في إحدى الجامعات الشهيرة، ولهذا فإنّ أطفالك يحتاجون إلى سفينة خاصة بهم إذا كان عليهم تعلّم كيفية الإبحار والاهتداء إلى مصيرهم العاطفيّ.

إنّ الانغمار في عالم الشّعور خبرة رائعة ومكافأة بذاته؛ ففي هذا العالم الوجداني لا توجد قوانين لتذكركها، ولا امتحانات لنؤديها، ولا درجات تسجل على بطاقتنا، بل إنّ المكافأة التي نحصل عليها من هذا العالم هي أن نعيش حياة سعيدة راضية بصرف النّظر عن الواجبات التي نؤديها، وإنّ القوانين في هذا العالم مرنة ومتعددة، أما الامتحانات فهي الطرائق التي تعالج بها أمور الحياة اليومية الحقيقية، وهذا العالم ليس تعليمًا صفيًا لبيئة مصنّعة، أو طريقة لجمع أموال كثيرة في مرحلة متأخرة من العمر. في هذا الجزء من حياتك، أيّ وضع تمرّ به، وأيّ إنسان تصادفه، وكلّ لحظة من لحظات الحياة فرصة لإظهار مهاراتك وقدراتك، إنه عالم كينونتك الذي تستعمل فيه معرفتك ومهاراتك طوال الوقت، ولا تضطر فيه إلى الانتظار حتى تعمل في السّوق لتعرف سبب دراستك موضوعاً بعينه. وسوف ترى بأنّ عينيك في كلّ يوم من أيام حياتك الأسباب المقنعة التي جعلتك تعمل بجدّ في تعلّم هذه المهارات والمواقف.

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّ أهدافنا بسيطة جدًّا، وهي أن نرتقي بمهاراتنا في تعليم أطفالنا إلى الحدّ الأقصى ليكونوا أقوياء وأصحاء بقدر ما يستطيعون، ضمن نطاق حياتهم الذي يدعى الشّعور. ونحن نريد لأطفالك أن يتعلموا خصائص العيش دون قيود، وباستطاعتنا مساعدتهم على تحقيق

هذه المهارات عالية المستوى من خلال جهودنا الأبوية، والهدف الثانوي الرائع أن نصبح نحن أيضاً أقوياء وأصحاء مثلهم، والركن الوجداني لهذا العالم.

ما مكونات العالم اللامحدود؟ سوف يركز كل فصل من فصول هذا الكتاب على ميزة محدّدة تشكّل الوظيفة السامية المتوافرة للناس في ثقافتنا، ويظهر الكيفية التي تساعد فيها أطفالنا على استبطان هذه الميزة المحدودة، وأنا أسمي الذين يُظهرون هذه المزايا باستمرار الناس الذين لا حدود لهم؛ لأنهم لم يفرضوا على أنفسهم قيوداً نابعة من الدّاخل، ويرفضون السّماح للآخرين بأن يفرضوا عليهم أيّ قيود كذلك، وقد استخدم كتاب آخرون من الذين درسوا السلوك الإنساني في الماضي أوصافاً مثل: العصاميين، والموجهين داخلياً، والواعين، والمدركين.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الطّريقة التي تشير بها إلى الأشخاص هي أنّ الشّخص اللّامحدود هو الذي يتمتع بتقدير الذات، والثّقة بالنّفس على مستوى عالٍ مهما كان الوضع الذي يواجهه، أو يمرّ به؛ فهذا النّوع من الأشخاص يتمتّع بحماس تجاه نفسه، ويشعر بالانتماء لهذا العالم، إنّهُ يبحث عن المجهول، ويجوب العوالم الغامضة، وينظر إلى الحياة على أنّها معجزة، وليس عناءً.

وعلى العموم، فإنّ الشّخص اللّامحدود يعمل بناءً على دوافع داخلية، وثقة بنفسه، واستعداد للمخاطرة، وقد يمرّ بحالات غضب أحياناً، ولكنها لا تعيقه عن الحركة، إنّهُ لا يفقد السيطرة على نفسه في أيّ وقت، ولا يشكو ولا يتذمّر، ولكنه إنسان عمليّ، ولا يستدرّ عطف الآخرين لحظّه العاثر. وكذلك فهو لا يقضي وقته في التفكير فيما سيأتي، ولكنه يركّز — بدلاً من ذلك — على ما يمكن عمله ليجنب المشكلات الحاليّة، ولا يظنّ مهموماً وشاعراً بالذنب حول ماضيه، بل يعرف كيف يتعلم من ذاك الماضي دون أن يشعر بالانزعاج أو الأسى من أشياء حدثت وانتهت. إنّهُ شخص ذو إحساس قويّ بغايته ومهمته في الحياة، ولا أحد يستطيع أن يسلبه هذا الجلد والإرادة الداخليّة، إنّهُ يواظب على أداء مهمته، ولا تزيده العقبات إلاّ تصميمياً.

هذا الشّخص مدفوع بصفات ومزايا عالية مثل: تقدير الجمال، والحب، والاحترام، والإنصاف، والسّلام العالميّ، ويميل إلى الاهتمام بالقضايا الكونيّة بدلاً من حصر ذاته ضمن حيّ، أو بلد، أو عائلة، أو مجموعة عرقيّة ما، فهو يحمل همّ الإنسانية جمعاء، دون التّركيز على دوافعه الشّخصية الأنانيّة. إنّهُ شخص مهتم بالأفكار أكثر من اهتمامه بالملكات والمقتنيات، إضافة إلى سعيه الحثيث في جعل العالم مكاناً أفضل أكثر من اهتمامه بوظيفة في مكتب محاماة مرموق، وهو يعرف أنّ سعاده تتبع

من داخله؛ ولذلك فهو لا يبدد حياته سعياً وراء أشياء امتلكها دائماً، مثل السعادة، والحب، والنجاح، والإنجاز، بل يضيف هذه المزايا إلى حياته، بدلاً من طلبها في الحياة.

هذا الشخص يتخذ منحى تعاونياً في الحياة، فلا يشعر بالتنافس مع الآخرين، ومن النادر أن يقارن نفسه بهم لقياس تقدمه، فهو موجه من الداخل، ويرى نفسه فريداً في الكون كله، ولهذا تبدو المقارنة لا قيمة لها عنده، وهو يسعى وراء الحقيقة بدلاً من الاهتمام بكسب رضا الآخرين، أو إثبات أنه على حق. ولأنه قادر على أن يعيش اللحظة الحاضرة، فإنه لا يقلق كثيراً مما سيحدث في المستقبل، أو تكرر ما حدث في سابق الأيام. إنه على يقين بأن رضا الناس غاية لا تُدرَك. وبسبب هذه القناعات الداخلية القويّة، فإنه غير معنيّ بمحاولة إثارة إعجاب الآخرين، أو السعي وراء تكديس الثروة كي يظلّ في القمة. مثل هذا الشخص يتجنب إصدار الحكم على الآخرين، ويؤمن بحق كل إنسان في اختيار طريقه ما دام أن ذلك لا يتعارض مع حقوق الآخرين ليفعلوا الشيء ذاته.

إنّ العلامة التجاريّة لمثل هذا الإنسان هي أن يحيا الحياة، كخبرة الصعود إلى القمة بشعور من التقدير العالي، وهو لا يسعى وراء النشوة بمواد مصطنعة، بل يفرح بكل شيء يمكن أن يهبه الله له، ولا يوجد في قاموسه كلمات تشير إلى الملل أو اللامبالاة.

ولأنه يقدر الحياة، فمن الصعب أن تعثر على أشياء لا تبهره، وهو لا يتظاهر بذلك، ولكنه قادر في الواقع على انتزاع الشعور بالسعادة من كل شيء، فهو يحب الأوبرا، ويمارس مهارتي التسلق وألعاب القوى، ويهوى قراءة الشعر، إنه يجسد قول الكاتب المسرحي الروماني تيرنس Terence (190 – 195 ق.م): أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس غريباً لديّ.

إن هؤلاء الأشخاص يعيشون حياة صحيّة، ويحافظون على لياقتهم البدنية، ولا يغويهم أي شيء للتخلّي عن ذلك ليس لأنهم أفضل من الآخرين، ولكن لأن لديهم نوراً داخلياً يكشف لهم شعور الإنسان السمين، أو المترهل، أو المدمن، أو الذي يلتهم الأطعمة الضارة للجسم، فهم يجمعون بين الجسم السليم والعقل السليم طريقة لعيشهم، ولا يتخلّون عن ذلك ليكونوا مقبولين اجتماعياً.

هؤلاء الأشخاص يتمتعون بروح الدعابة، ويضفون جوّاً من المرح على المكان الذي يكونون فيه، ولا يضيّعون وقتهم في لوم الآخرين على عيوبهم، ويتمتّل عدم لومهم للآخرين في أنهم لا يبحثون عن عيوب في الآخرين لتبرير عيوبهم، فتوجيههم الداخلي يساعدهم على تحمل مسؤولية حياتهم وأهداهم في هذه الحياة بصفاتهم أشخاصاً مستقلّين. إنهم لا يصنّفون أنفسهم وفقاً لمعايير

الإخفاق والنجاح، وإنما يتقبلون الإخفاق على أنه جزء من التعلم، وهم مستعدون لتجربة أي شيء يستهويهم، فهم مستقلون بفكرهم، ومعتدون بآرائهم، لذا فإنهم يتجاوزون القوانين والعادات التافهة التي تقيد الآخرين كثيراً وتربكهم. ويمتلك هؤلاء الأشخاص خيالاً إبداعياً، ويتأملون في كيفية إنجاز المهام قبل البدء بها. وهم غير مشغولين كثيراً بفكرة الفوز، سواء كان ذلك بكسب الآخرين إلى جانبهم أو هزيمتهم، ومع ذلك، فهم يعدون فائزين من قبل الأشخاص الذين يصنّفون الناس وفقاً لقاعدة الفوز والخسارة.

إن حياة هؤلاء الأشخاص خالية من الكآبة والحزن؛ لأنّ لهم مواقف فريدة تجاه الحياة؛ فهم ينظرون إلى الجانب الإيجابي منها، في حين ينظر الآخرون إلى جانبها السلبي، وإنهم يثقون بقدراتهم في إنجاز المهام بدلاً من التفكير في المستحيلات، زد على هذا أنّ حماسهم يجنبهم الانهيار العاطفي. وباختصار، نحن نتحدث عن أشخاص يمتلكون زمام أمورهم، ويتمتعون بطاقة مدهشة في معظم الأوقات للاستمتاع بالحياة، أما آخرون، فقد مسّهم الجنون؛ لعدم قدرتهم على تقبّل الحياة كما هي. وقد عرضنا هذا الوصف المختصر هنا في الفصل الأول؛ لإعطاء القارئ لمحة سريعة عمّا أتحدث عنه عندما أقول إنّ الأطفال الصغار الأبرياء يتمتعون عملياً بهذه الصفات جميعها، على أنّها جزء من فطرتهم المتوارثة، ولكنهم غالباً لا يعودون يرون هذه الصفات الفطرية في سعيهم وراء السعادة والنجاح، لذا فهم بحاجة إلى تعلّم كيفية توظيف قدراتهم الداخليّة وهم ينغمسون في مسيرة الحياة.

من الطبيعيّ أن يكون الإنسان سعيداً، ومعافى، وعقلانياً، وناجحاً، وموجّهاً من داخله، وهكذا فهذه صفات بشرية طبيعية، ولكننا ننحّيها جانباً في سعينا وراء المعايير الخارجية للنجاح.

لقد انطلقت في تأليف هذا الكتاب من فكرة وجود إنسان غير محدود في داخل كلّ منا، ولكننا نفقد هذا الإنسان عندما نحاول أن نكيّفه مع معاييرنا الثقافية للنجاح في الحياة، والمفارقة الكبيرة في هذه الحياة هي عدم وجود طريق واحد يوصل إلى السعادة، السعادة نفسها هي الطريق، وفي المقابل، لا يوجد طريق محدّد يوصل إلى النجاح؛ فالنجاح موقف داخليّ نضيفه إلى مساعينا ومحاولاتنا، فإذا سعيت وراء الحبّ فسوف يفلت منك ويضللّك، فعليك والحالة هذه، أن تستدرج الحبّ إليك، وإذا بحثت عن الأمن فسوف تشعر دائماً بأنك غير آمن، وإنّ لهثت وراء المال فلن تقنع أبداً.

إنّ الأشخاص العصائبيين نادراً ما يستنبطون هذه المفارقات، فمعظمهم يقضون حياتهم بحثاً عن السعادة والأمن والحبّ، ولا يتوقفون أبداً ليتحققوا أنّ بإمكانهم الحصول على ما يريدونه لو أنهم توقفوا عن المطاردة والجري، وأدخلوا هذه المواقف إلى حياتهم، سواء في العمل أو اللهو. ويبدو أنّ الأطفال يعرفون هذه المعادلة، فحياتهم زاخرة بهذه الصفات الرائعة؛ وعليه، يجب أن نعطي الأطفال حقهم الفطري بوصفهم أطفالاً غير محدودين من أجل أن يكبروا على أنّهم بالغون غير محدودين، صحيح أنهم يحتاجون إلى توجيهنا، ومن المؤكد أيضاً حاجتهم إلينا؛ لمساعدتهم على تجنب تدميرهم لذواتهم في فوران حماسهم للحياة، ولكن علينا دائماً التذكّر أننا في حاجة إلى أن نتعلم من أطفالنا بالمقدار نفسه الذي تقدّمه لهم وعلينا ألا نهدر جهودنا الأبوية من خلال افتراض أنّ من حقنا تشكيل هؤلاء الأطفال إلى ما نعتقد أنه صواب لهم، بل علينا أن ننظر إليهم على أنّهم مثاليون تقريباً من منظور المهارات والمواقف اللامحدودة، لذا يجب علينا توخي الحذر الشديد؛ حتى لا نسلبهم هذه الصفات في أثناء حماسنا لجعلهم ناجحين وفق معاييرنا الخارجية للنجاح.

وعلى عدم نسيان أهدافنا في أثناء استكشاف ما نقوم به، فنحن نحاول تهذيب أطفالنا وتشجيعهم على السير لتحقيق أحلامهم ومساعيهم، وكما يصلوا إلى ما تمكنهم قدراتهم من الوصول إليه، مع اعترافنا في الوقت ذاته بأنهم مخلوقات كاملة، وعلينا أن ندرك أنهم لن يتفوقوا معنا دائماً، بل إنّهم يريدون السير في الطريق الذي يختارونه هم لا غيرهم، وأن تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم، وأنهم سوف يختلفون معنا في الرأي مقارنة بما هو مناسب لهم أكثر من اتفاقهم مع آرائنا بخصوص ما هو لمصلحتهم. وعلينا كذلك ألا ننسى أنّ لديهم أنواعاً داخلية لا نراها، وأنّ رؤيتهم يصعب أن تتفق مع رؤيتنا، وابتهاالاتهم لن تكون أبداً مثل ابتهاالاتنا، وقد تتباين أفكارهم كثيراً مع أفكارنا.

ومما لا شك فيه أنّ هذه السمة الرائعة للسعادة اللامحدودة الكاملة التي نودّ غرسها في أطفالنا لن تأتي دون صراع، إلا أنّ هذا الصراع يجب ألا يكون مع أولياء الأمور الذين يسرهم أن تتجح جهود أطفالهم ليحققوا الصواب لهم. ولا يوجد تحدّ في هذا العالم أكبر من أن تكون والدًا، وعليه؛ يجب أن نسلم دفة المركب لأنبائنا الصغار، ونكتفي بدور البحارة المؤقتين.

ويحتم واقعا الحالي أنهم سوف يتولون القيادة، وكذلك سيفعل أبنائهم في يوم ما؛ لأنّ هذا هو قدرهم ومصيرهم، وإذا كنا نستطيع أن نستشف أهمية تشبّثهم حتى لا تعيقهم أيّ حدود، وأن يكبروا حتى يحققوا ذواتهم، فقد نفاجا كثيراً إذا ما اكتشفنا أنّ المشكلات التي أخفقنا في اجتثاثها

— مثل الفقر، والجوع، والحروب، والجريمة، والتلوث البيئي وغيرها — يمكن التعامل معها بطريقة أفضل من قِبَل جيل جديد ذي شخصية بارعة. ولعلهم، وهذا مجرد احتمال وأمنية، لو لم يكونوا مشغولين بمشكلاتهم التافهة، ولو أنّ لديهم شعوراً بالانتماء ومعنى للهدف، فسوف يكونون مستعدين للتعامل مع المشكلات الكبرى وحلّها، والشاهد على هذا القَوْلُ الصِّينِيّ:

إذا كنتَ تفكّر في السنة القادمة فازرع بذرة.

وإذا كنتَ تفكّر لعشر سنوات القادمة فازرع شجرة.

وإذا كنتَ تفكّر لمئة سنة القادمة فازرع شعباً.

ولك أن تتصوّر عالماً مليئاً بالآباء المتعلمين الذين يربّون أبناءهم ليصبحوا أفراداً غير محدودين، جيلاً مستقراً عاطفياً، ذا دافعية عالية، لا يفكّر بطريقة تدميرية كالتي هيمنت على عالمتنا حتى الآن. لقد كتب جون رسكن، الذي ورد ذكره في بداية هذا الفصل: البلد الأكثر ثراءً هو الذي يرفع أكبر عدد من النبلاء والسعداء، ويظل هذا مجرد احتمال، ولكنه يظل أعظم شيء يمكن أن يخطر في البال، وهو تعليم الناس، وإيجاد دول كاملة يكون معظم سكانها نبلاء وسعداء.

